قَضَايَا نَقْديَّة فِي الشِّعر العربي القديم
كِتَابُ الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ لابْن قُتَيبَة أُنْمُوذَجًا

د. فوزي عمر سالم الحدَّاد
كليَّة التربية/ جامعة طبرق/ ليبيا
fawzidad74@gmail.com

المُلخَّص:

يتعلَّق هذا البحث بدراسة الفكر النَّقدي لشخصيَّة بارزة ظهرت في العصور العربيَّة الزاهرة، وأعني به عبدالله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، العالم واللُّغوي والناقد والقاضي والفقيه البارز، الذي عاش بين عامي: 213-276 هـ، فعرضتُ لمنهجه النقدي في مؤلفاته، وناقشتُ أساليب تفكيره، وخصوصًا في كتابه الأشهر: الشِّعر والشُّعراء، استعرضتُ الكتاب وتناولتُ أهداف الشعر وغاياته بحسب فكر ابن قتيبة، وختمتُ بخلاصة لأهم ما توصَّل إليه هذا البحث.

الكلمات المفتاحيّة: قضايا نقديّة_ ابن قُتيبة_ الشعر الشعراء.

المبحث الأول: حياة ابن قتيبة وثقافته

1.1 . مولده ونشأته:

اختلفت آراء المؤرِّخين في مكان ولادة عبد الله بن مسلم، فبعض منهم يقول أنَّه وُلِد في الكوفة، كابن النديم[1] وابن الأثير[2] وابن الأنباري، وفريق آخر يقول أنَّه وُلِد ببغداد، كالبغدادي[3]، والسمعاني[4]، والقبطي[5] وهناك من يرى الروايتين[6]، وبما أنَّ المؤرخين لا يهتمون عادةً بسنة الولادة فقد اختلفوا أيضاً في سنة ولادته، لكن بعض المصادر أكَّدت أنَّ سنة ولادته 213هـ، الموافق 828م[7]. اسمُهُ: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وكنيته أبو محمد، وقد ذكرَ نفسه بكنيته كثيرًا في كتبه، ولقبه المشهور به الدينوري جاء انتسابًا إلى الدينور إحدى مدن الجبال من فارس لأنَّه تولَّى قضاءها أيام الوزير عبيد الله بن يحي بن خاقان، وابن قتيبة ينحدر أصله من أسر فارسيَّة كانت تسكن مدينة (مرو) وممَّا يؤكِّد هذا قوله محاجاً الشعوبيَّة: "فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عمَّا تدعيه لها جهلتها"[8] أمَّا نشأته فقد أشار إليها عدد من المؤرِّخين ولكن الواضح منها أنَّه انتقل إلى بغداد، ومكث بها مدَّةً طويلة ولذا يقال له البغدادي، وممَّا يؤكِّد هذا إنَّ بعض الثِّقات كمؤلف التهذيب للأسماء ومصنف طبقات المفسرين، وصاحب اللُّباب قالوا: إنَّه نزل ببغداد أو سكن بها دون أن يذكروا ولاته بها[9].

وحين حلَّ في بغداد وجد فيها عدداً كبيراً من العلماء في مختلف ألوان المعرفة، لذا يقول في كتابه تأويل مختلف الحديث: "وقد كنت في عنفوان الشباب وتطلب الآداب أحب أن أتعلَّق من كل علم بسبب وأن أضرب فيه بسهم"[10]، وصار في نهجه حتى اتجهت إليه أنظار الناس وأخذوا عنه العلم والأدب، فقد أصبح رأسًا في النحو واللُّغة والأخبار.

بل إنَّه "كان عفيفاً طاهر النفس فقه ديِّناً فاضلاً مستقل الفكر جريئاً يقول الحق على نفسه وعلى الناس"[11]، حتى تولَّى القضاء بالدَّينُور من بلاد فارس بإقليم همذان فطال مكوثه فيها حتى نُسب إليها فقيل "الدينوري".

2.1 . ثقافتُه ومؤلفاتُه :

أشار إليه كثير من الباحثين وذكروا عمق ثقافته وسعة معرفته في علوم العربيَّة، قال عنه السيوطي: "كان رأساً في العربيَّة واللُّغة والأخبار، وأيام الناس، ثقة، ديِّنًا، فاضلاً "[12]. أمَّا القفطي فيقول: "هو صاحب التصانيف الحِسان في فنون العلم"[13]. ومن مثل هذا قال ابن خلكان والسمعاني والبغدادي. أمَّا أحمد أمين فقد وصفه بسعة الثقافة:" وعلى الجملة فثقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة، ومظهر امتزاج الثقافات عنده مدنيَّة كانت أو دينيَّة مظهر جليّ وواضح".[14]

ولم تقتصر إشارة الباحثين القدماء العرب والمسلمين إلى علمه الغزير وموسوعيّته بل جاءت إشارات من عدد من المستشرقين منهم هوارت الذي وصفه قائلاً: "إنَّه موسوعة علميَّة" ومن مثل هذا قال نيكلسون في تاريخه الأدبي وبروكلمان في دائرة المعارف، وكذلك وصفة الحافظ الذهبي قائلاً:" إنَّه من أوعية العلم"[15].

ويبدو واضحاً من خلال النصوص السابقة، مدى علو منزلة ابن قتيبة وسعة اطلاعه وتنوُّع ثقافته التي لم تقتصر على اللُّغة العربيَّة وأدبها، ولكنه تجاوزها إلى لغات الأمم الأخرى كاليونانيَّة والفارسيَّة، كذلك درس المنطق وهذا يبدو جليَّاً في تنظيم بحوثه وتسلسل أفكاره وتبويب كتبه وحسن تنسيقه، وحصره للموضوع، والحق أنَّ ابن قتيبة لم يترك بحراً من بحور العلم يشبع رغباته إلَّا غاص فيه واستخرج دررَه، فقد جمع بين المدرستين البصريَّة والكوفيَّة، مرَّةً يفضِّل إحداهما وأخرى يختار لنفسه مذهباً وسطاً يتناسب وعقليته المتحرِّرة دون أن يسير في ركب المقلِّدين حتى اعتبره العلماء إمامًا لمدرسة بغداد التي جمعت بين آراء الكوفيَّة والبصرة.[16]

ويلاحظ أنَّ علماء ذلك العصر كانوا يتبارون في الكشف عن سعة علومهم وغزارتها، لذلك تجدهم يعبِّرون عن ذلك في مؤلفاتهم " فقد كانوا يرون في علاجهم لموضوع ما، فرصة من الفرص الفريدة التي يمكن أن يغتنموها لبسط ما وعوه من معارف وليدلوا على غزارة مادتهم وسعة اطلاعهم حتى يصبحوا في نظر الناس خليقين أن يُنعَتوا بالأدباء"[17]، لهذا كان لا بدَّ أن تتنوَّع مجالات الدرس لدى كثير من أدباء العصور العربيَّة وعلمائها، منهم بالطبع ابن قتيبة، فقد كان واسع الثقافة عالماً بالفارسيَّة وآدابها وأساليبها، وهي نتاج عقول متحضِّرة منذ أمدٍ بعيد، أضف إلى ذلك معرفته الوثيقة بعلم المنطق وأساليب الجدال، أمَّا عن كتبه فقد امتازت بوحدة الموضوع بعيدة عن فوضي التأليف التي انتشرت في عصره، فقد اتَّجه إلى تنظيم بحثه وتقسيمه إلى أبواب متسلسلة من حيث الفكرة وتتبعها، وكذلك كان من أوائل أولئك الذين جعلوا في مقدِّمة كتاباتهم عرضاً يوضِّح الغرض منها أو دافع تأليفها، قال في هذا نيكلسون: "إن كتب ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيِّمة المنظمة التي تناولت موضوعات بذاتها".[18] وقد بلغ من تقدير ابن تيمية لكتب ابن قتيبة إلى أن قال: " كلُ بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه"[19].

3.2 . منزلته العلميَّة ووفاته :

ذكرنا أنَّ ابن قتيبة بلغ مبلغاً عظيمًا، وتدرَّج في سلم العلم والمعرفة فوصل إلى حيث حسده كثيرُ من علماء عصره، ومدحه آخرون رأوا في مؤلفاته زاداً لا يستطيع الدَّارس أو الباحث إلَّا أن يأخذ منه، فابن قتيبة هذا الأديب واللُّغوي والعالم الجليل وافر المصنفات غزير المادة، شملت كتاباته العلوم الدينيَّة واللُّغويَّة والآداب العربيَّة وغير ذلك من معارف عصره، ثم إنَّه قام بمعارضة الكثير من علماء عصره خاصة الذين تعرَّضوا بالطَّعن للحديث

وفضَّلوا الأخذ بالرأي والقياس على النصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة، فقد كان محبَّاً للحق والعدل كارهاً للشر وأعوانه، غيوراً على العقيدة الإسلاميَّة مدافعاً عن اللُّغة العربيَّة وآدابها.

يقول عنه ابن حزم: " إنَّ ابن قتيبة ثقة في دينه وعلمه"، كذلك قال عنه ابن كثير إسماعيل بن عمر المتوفي في سنة 774 هـ : "ابن قتيبة النَّحوي اللُّغوي صاحب المصنفات الكثيرة البديعة المفيدة، المحتوية على علوم جمَّة نافعة، أحد الأعلام والأدباء والحفَّاظ الأذكياء، كان ثقة نبيلاً"[20].

أمَّا ابن النديم فقال فيه :" كان صدوقاً فيما يرويه عالماً باللُّغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه كثير التصنيف والتأليف"[21]، أمَّا السمعاني فقد وصف كتبه بأنَّها "الحسنة المفيدة"[22].

أمَّا وفاته، فقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته إذ وردت في سنوات 270 ، 271 ، 276هـ، لكن ابن الأنباري يروي عن ابن المنادى عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن بشير الصائغ تلميذ ابن قتيبة : إنَّ وفاته كانت في أول ليلة من رجب سنة 276 هـ وهذه الرواية هي التي يطمئن إليها عدد كبير من الباحثين.[23] أمَّا سبب وفاته فقد جاءت في روايتين: الأولى: رواية ابن المنادى عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ من: "أنَّ ابن قتيبة أكل هريسة فأصاب حرارة ثم صاح صيحة شديدة، ثم أغمي عليه إلى وقت السَّحر ثم مات"[24] والثانية : عن محمد بن عبدالواحد عن محمد بن العباس قال: "قرئ على ابن المنادى وأنا أسمع قال: ومات عبدالله بن مسلم بن قتيبة صاحب التصانيف فجأة، صاح صيحة سُمعت من بُعدْ، ثم أغمي عليه ومات"[25]. أمَّا عن موضع وفاته فقد انفرد ابن الجوزي بذكره فقال: "ذكر بعض أهل النقل أنَّه مات بالكوفة ودُفن إلى جنب قبر أبي حازم القاضي"[26]، وهذا لم ينقله المؤرخون لأنَّ الثابت عندهم أنَّه سكن بغداد، وبقي فيها حتى سنة 274 هـ حيث روى عنه تلميذه قاسم بن اصبغ البياني، وهذا يدلِّل على أنَّ ابن قتيبة كان موجوداً فيها إلى تلك السنة ولم يذكروا خلال هذه السنوات أنَّه غادرها إلى مكان آخر[27].

المبحث الثاني: منهجه النَّقدي في مؤلَّفاته

1.2 . منهجُه ومؤلفاتُه

عاش ابن قتيبة في عصر زاخر اختلطت فيه الدراسات وشاع التأليف، وبرز علماء وأدباء عديدون منهم الجاحظ والمبرد وغيرهم كثير، ولكن التأليف في هذا العصر ساده الاضطراب فطبعت المؤلَّفات بطابع الاستطراد والانتقال من فكرة إلى أخرى دون علاقة بينهما، ففقدت وحدة الموضوع وخاصة عند الجاحظ وكذلك المبرد، فقد كان هذا هو الطابع العام للتأليف في ذلك العصر.

لكن ابن قتيبة لما يمتلكه من ثقافة واسعة وفكر نيِّر، جاء بأسلوب جديد للتأليف من حيث اعتنائه بالتنسيق والتنظيم بين فقرات البحث وفصوله، بحيث اهتم بالتسلسل المنطقي بين الأفكار في موضوعاته، ولعلَّ هذا يرجع إلى إلمامه بالقضايا والأساليب الجدليَّة ويبدو أنَّه قد استاء من فوضى التأليف التي كانت سائدة عند معاصريه، لذا فقد اهتم: "بوحدة الموضوع وتنظيم البحث وتقسيمه إلى أبواب وتسلسل الأفكار واستقصاء الفكرة ، وهذه خطوة عظيمة في ميدان التأليف تحسب لابن قتيبة"[28].

فهو أراد أن يخط لنفسه منهجاً متفرِّداً لا يخضع فيه للمعايير والمقاييس الأدبيَّة التي كانت سائدة في عصره، وفي هذا يقول د.محمد مندور:" الواقع أنَّ ابن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبيَّة ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبيَّة التي كانت منتشرة في عصره"[29]. فمؤلفات ابن قتيبة المختلفة شملت اهتمامات عدَّة أبرزت سعة الثقافة التي يتمتَّع بها، فبعض هذه الكتب تناولت العناية بغريب اللُّغة وبعضها الآخر يتناول النحو، كذلك من كتبه ما كان مستلهِمًا من عصبيِّته لأصحاب الحديث، وبالطبع استأثر الشِّعر بجهدٍ واضح برز من خلال عدَّة مؤلَّفات، فدائرة الدراسة الشِّعريَّة عند ابن قتيبة اتسعت فشملت "خمسة كتب كاملة هي:

1. كتاب المعاني الكبير.
2. الشعر والشعراء.
3. عيون الشعر.
4. التقفية.
5. المسير والقداح. [30]

ونلاحظ أنَّ حصة الشِّعر كانت كبيرة في كتبه الأخرى وهي:

1. العرب.
2. عيون الأخبار.
3- تأويل مشكل القرآن.
4. الأنواء.

ولقد وصلت هذه الكتب إلى أيدينا، عدا كتابي عيون الشِّعر والتقفية، وعدا أجزاء من العرب، والمعاني الكبير[31]، من جهة أخرى يجدر بنا أن نذكر أنَّ ابن قتيبة تأثَّر بمعاصره الجاحظ فقد "نحا ابن قتيبة منحى الجاحظ في اتِّخاذ الشِّعر العربي مصدراً للمعرفة فكتب كتاباً في "الأنواء" وآخر في "الأشربة" وثالثاً في "الخيل" ليثبت لأنصار الكتب المترجمة أنَّ في الشِّعر العربي ما يضاهي حكم الفلاسفة وعلوم العلماء"[32]. وهذا يوضِّح

مدى تأثُّر ابن قتيبة بالجاحظ، فقد كان الجاحظ ممَّن أخذ عنهم ابن قتيبة، يبدو هذا جليَّاً من خلال ما يصرِّح به ابن قتيبة نفسُه عندما يقول في كتابه عيون الأخبار:" وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر الجاحظ قال: .. "[33]. بل إنَّ ابن قتيبة يتبنَّى بعضاً من آراء الجاحظ من مثل: "رأيه في أنَّ النادرة يجب أن تورد بلفظ أصحابها ولو كانت ملحونة، ورأيه في استباحة ذكر العورات في الكتب دون تحرج"[34]، إلى غير ذلك من الآراء.

وهنا يجدر بنا أن نذكر ما أورده الدكتور إحسان عباس الذي ذكر أنَّه على الرغم من تأثُّر ابن قتيبة بالجاحظ إلَّا أنَّه "يحمل بشدَّة على الجاحظ لأنَّه ينتصر للشيء ولضده، ويصفه بأنَّه من "أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل" ولكن هجومه هذا مقصور على الناحية المذهبيَّة دون سواها"[35].

كذلك نهج ابن قتيبة في مؤلفاته نهجاً يتمثَّل في محاولة استقطاب ذوي الأصول غير العربيَّة وخاصةً ذوي الأصول الفارسيَّة، عندما اهتم بطبقة الكتَّاب أصحاب الميول الشعوبيَّة، فقد اشتغل بتأليف كتب تقرِّبهم من التُّراث العربي، وتصرفهم عن الكتب الفارسيَّة الخالصة من مثل كتب: أدب الكاتب، المعارف، عيون الأخبار الذي يقول فيه: "وإنِّي كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكُتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد حين تبيَّنت شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس"[36].

وفي اتجاه آخر نرى ابن قتيبة يحمل بجدٍّ على مذهب الفلاسفة في النظرة إلى اللُّغة وإقحام المنطق الشكلي في دراستها وتذوُّقها، ابن قتيبة بهذا يحاول أن يبعد هذا التيار الجديد عن عقول الشباب الذي من شأنه أن يصرفهم عن النظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول في مقدِّمة كتابه أدب الكاتب: "ولو أنَّ هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين. ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فغضب لذلك وعاداه. وانحرف عنه إلى علم قد سلمه ولأمثاله المسلمون، وقل فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد، وسمع الكيان والأسماء المفردة، والكيفيَّة والكميَّة والزمان والدليل، والأخبار المؤلفة، راعه ما سمع، وظنَّ أنَّ تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل، إنَّما هو الجوهر يقوم بنفسه، والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم، والكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي: الأمر، والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر، والآن حد الزمانين، مع هذيان كبير، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف، وكذا كذا مائة من الوجوه، فإذا أراد المتكلِّم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه، وقيداً للسانه، وعياً في المحافل، وعقلة عند المتناظرين"[37].

ومن الآثار البيِّنة في منهج ابن قتيبة النقدي تلك الروح التي غلبت على آرائه فنتيجة لاشتغاله مدَّة طويلة بالقضاء، كان يميل إلى الاعتدال في بعض آرائه ومذاهبه، يقول في هذا الدكتور محمد زغلول سلام:" وأثَّرت ثقافة ابن قتيبة المتنوِّعة، وبيئته في بغداد واشتغاله بالقضاء وتعمقه أصول الفقه في تأليفه، وظهرت روح القضاء الذي تولَّاه حيناً في كتبه، فكان من شواهدها اعتداله في مذهبه النَّحوي بين أهل البصرة والكوفة، واعتداله كذلك في مذهبه الديني بين المعتزلة والمتكلِّمين وأهل السنة، وإن بدا متعصِّبًا لأهل السنة أحيانًا، كذلك كان معتدلاً في اتجاهه الأدبي، فحاول التوسُّط بين الاتجاهين المتعارضين في عصره، مذهب القدماء ومذهب المحدثين"[38].

وإذا ما نظرنا إلى مجمل تآليف ابن قتيبة نستطيع القول إنَّ كثيراً منها مستمد من القرآن والحديث والشِّعر وأخبار الناس، وقد بدا أنَّ أسلوبه المتميِّز وصياغته الفريدة أظهر بوضوح شخصيته في عديد كتبه من مثل الشِّعر والشُّعراء وكتاب الأنواء وكتاب المسير والقداح. وهناك أيضاً قسم آخر من كتبه استمدَّ مادته من فكره النيِّر وسعة أفقه، وفي هذا الجزء من كتبه ظهرت بقوة شخصيته الفذة، وظهر جليَّاً اعتزازه برأيه الخاص وهذا واضح من خلال كتابه تأويل مختلف الحديث وكتاب الأشربة.

وفيما يلي سأعرض أبرز مصنَّفاته كتابه: الشِّعر والشُّعراء

2.2 . كتاب الشِّعر والشُّعراء

ذكره ابن النديم[39] بهذا الاسم، وابن خلكان[40] والداودي[41] والقفطي[42] وابن العماد الحنبلي[43]، والسيوطي[44] باسم طبقات الشعراء، ورواه أيضاً ابن خير الأشبيلي[45] وحاجي خليفة[46] بهذا الاسم، وكذلك ذكره بهذا الاسم الرافعي[47] في تاريخه الأدبي.

ويبدأ ابن قتيبة كتابه كعادته في كتبه موضِّحاً الغاية من تأليف الكتاب يقول:" هذا كتاب ألفته في الشُّعراء أخبرت فيه عن الشُّعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمَّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدِّمون فأخذه عنهم المتأخرون، وأخبرت فيه عن أقسام الشِّعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشِّعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك"[48]. وقد أوضح ابن قتيبة منهجه في اختيار الشُّعراء الذين ترجم لهم، فهل ذكر جميع الشُّعراء المعروفين في عصره؟

أقرَّ ابن قتيبة أنَّه لم يذكر كل من قال الشِّعر إنَّما أقتصر على الشُّعراء المجيدين المشهورين والذين تظهر أسماؤهم في كتب الاحتجاج فقال:" وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله (صلى الله عليه

وسلم). فأمَّا من خفي اسمه، وقلَّ ذكره، وكسد شِعره، وكان لا يعرفه إلَّا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً، وإذ كنت أعلم أنَّه لا حاجة بك إلى أن أسمِّي لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان، أو نسب أو نادرة، أو بيت يستجاد أو يستغرب."[49]

وأضاف ابن قتيبة أنَّه نحا منحى آخر في ترجمته للشُّعراء فقد ذكر أنَّه لم يترجم لكل شُعراء الجاهليَّة والإسلام، لأنَّ عددهم أكثر من أن يحيط بهم محيط، قال في هذا:" ولعلَّك تظن أنَّه يجب على من ألَّف مثل كتابنا هذا ألَّا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلَّا ذكره ودلَّك عليه، وتقدر أن يكون الشُّعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد. والشُّعراء المعروفون بالشِّعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليَّة والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمله في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شِعر قبيلة حتى لم **يفته** من تلك القبيلة شاعر إلَّا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها."[50] وأضاف ابن قتيبة أنَّه ذكر في كتابه من كان غلب عليه الشعر، أي من كان معروفاً بقول الشِّعر في زمانه، لذلك رأيناه يهمل ذكر كثير ممَّن قال الشذ اليسير، ولو ذكر أولئك لأصبح كتابه أضعاف ما عليه اليوم، قال:" ولم أعرض في كتابي هذا لمن كان غلب عليه غير الشِّعر فقد رأينا بعض من ألَّف في هذا الفن كتاباً يذكر في الشُّعراء من لا يعرف بالشِّعر ولم يقل منه إلَّا الشذ اليسير، كابن شبرمة القاضي، وسليمان بن قتيبة التيمي المحدث، ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء في الشِّعر لذكرنا أكثر الناس، لأنَّه قل أحد له أدنى مسكة من أدب، وله أدنى حظ من طبع، إلَّا وقد قال من الشِّعر شيئاً، ولاحتجنا أن نذكر صحابة رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) وجلة التابعين، وقوماً كثيراً من حملة العلم ومن الخلفاء والأشراف ونجعلهم في طبقة الشعراء."[51]

ثم ينتقل ابن قتيبة فيسلك مسلكاً مهمًا في منهجه النقدي، ألا وهو حديثه عن موقفه من الشِّعر القديم والحديث، فهو لم ينظر – عند ترجمته للشُّعراء –إلى المتقدِّم منهم بعين الجلال والتعظيم لتقدمه، ولا إلى المتأخِّر بعين الاحتقار لتأخُّره ، بل أخذ بعين العدل وأعطى كلَّاً حقَّه، وفي هذا يقول:" فإنِّي رأيتُ من علمائنا من يستجيد الشِّعر السخيف لتقدُّم قائله، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشِّعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلَّا أنَّه قيل في زمانه أو إنَّه رأى قائله."[52]

فابن قتيبة رأى أنَّ الشِّعر وحده هو مقياس تقدُّم الشَّاعر وتميُّزه، دون اعتبار لتقدُّمه أو تأخره في الزمن، لأنَّ الشِّعر والبلاغة عنده لم تقتصر على عصر دون غيره، أو على قوم دون سواهم، لكن ذلك مشترك ومقسَّم بين عباد الله، وأنَّ كل شعر أو أدب هو حديث في عصره، ثم يصبح حين يمضي الزمن قديمًا يقول:" ولم يقصر الله

العلم والشِّعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديث في عصره... فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه، ولم يضعه عندنا تأخُّر قائله أو فاعله، أو حداثة سنِّه كما أنَّ الرديء إذا ورد علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه[53].

وعن هذه النظرة قال الدكتور محمد زغلول سلام: وتلك نظرة قاض يضع العدل موضع الحكم، ولا يفرِّق بين الناس إلَّا وفق ما يقدِّمون من العمل، فالتقديم للمحسن والتأخير للمسيء.

ولا شيء سوى ذلك ممَّا يتصل بشكل القائل ومكانته. وهي نظرة مثاليَّة من وجهة نظر النقد إذا أُحسن تطبيقها، ووافت طبيعة الشِّعر العربي الناقد في تنفيذها، وهذه الروح على أيَّة حال روح جديدة مخالفة في مظهرها لروح ابن سلَّام في كتابه السابق، فطبقاته قائمة على نظام تفاضلي، يقسِّم الشُّعراء طبقات حسب السبق والجودة ولها عللها ومقوماتها، أمَّا ابن قتيبة فينظر للشعراء وأشعارهم نظرة أخرى مغايرة، فيعنى بالمشهورين منهم خاصة، وعيار الشهرة عنده دوران أشعارهم على ألسنة الخاصة من العلماء، والاستشهاد بها في علوم اللُّغة والنحو، وتفسير كتاب الله، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي النظر للشِّعر من حيث موافقته لمعايير الفصاحة، وسلامة التركيب، ودقَّة المعاني والأصالة، لأنَّ هذه الخصائص جميعًا هي ما ينبغي توفرها في كل ما يستشهد به في الأحوال التي ذكرها[54].

إضافةً إلى ذلك ذكر ابن قتيبة أنَّه أودع كتبه كثيراً من الأخبار عن أهميَّة الشِّعر وجلالة قدرة، وعظيم خطره، وأشار إلى من رفعه الله بالمديح وعمَّن وضعه بالهجاء، وذكر أموراً كثيرة أخرى غير أنَّه يودع بعض هذه الأخبار في كتابه الشِّعر والشُّعراء معلِّلاً ذلك بأنَّه سبق وذكر هذه الأخبار في كتبه الأخرى فخشي الإطالة بإعادتها، يقول في هذا: "وكان حق هذا الكتاب أوعية الأخبار عن جلالة قدر الشِّعر وعظيم خطره، وعمن رفعه الله بالمديح عمن وضعه بالهجاء، وعمَّا أودعته العرب من الأخبار النافعة والأنساب الصِّحاح والحِكم المضارعة لحِكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل، النجوم وأنوائها الاهتداء بها، والرياح وما كان منها مبشِّراً أو خائلا، والبرق وما كان منها خلُّباً أو صادقاً، السحاب وما كان منها جهاماً أو ماطراً، وعمَّا يبعث منه البخيل على السماح والجبان على اللِّقاء والدنيء على السمو. غير أنِّي رأيت ما ذكرت من ذلك في كتاب العرب كثيراً كافياً، فكرهت الإطالة بإعادته، فمن أحبَّ أن يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشِّعر ومرِّه نظر في ذلك الكتاب"[55].

وأشار الدكتور محمد مندور إلى أنَّ قول ابن قتيبة في مقدِّمته:" وهذا كتاب ألفته في الشُّعراء، وأخبرت فيه عن الشُّعراء وأزمانهم ...إلخ" يفهم منه أنَّ ابن قتيبة استطاع أن يجمع بين مسألتين هما: التاريخ والنقد، ولكن الدكتور مندور رأى أنَّ ابن قتيبة عرض لبعض المسائل العامة دون أن يضع لها مبادئ فقال:" وهذا كلام قد يفيد أنَّ المؤلِّف قد جمع بين التاريخ والنقد ولكن الواقع بخلاف ذلك، فابن قتيبة لم يتناول النصوص بنقد فنِّي تطبيقي، وإنَّما اكتفى بأن عرض في مقدِّمته لبعض المسائل العامة دون أن يحاول وضع مبادئ لها، ثم أخذ في سرد سير الشُّعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ في التأليف."[56]

وتحدَّث د. مندور عن الفرق بين منهجي ابن سلَّام وابن قتيبة وبخاصة في موضوع الطبقات، وهذا يوضح أنَّ ابن قتيبة كان مستقل الرأي وغير خاضع لكثير من التقاليد الأدبيَّة يقول: ابن سلَّام قد صدر في تاريخه للأدب العربي عن مبادئ وأنَّه قد أضاف إلى فكرتي الزمان والمكان مقاييس فنيَّة كان يؤمن بها هو أو البيئة التي تحوطه واتخذها أساساً لتوزيع الشُّعراء في طبقات والمفاضلة بين شعراء كل طبقة، فهل صدر ابن قتيبة عن شيء من ذلك؟

الواقع أنَّ ابن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبيَّة ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبيَّة التي كانت منتشرة في عصره، ولكنه لسوء الحظ لم يعد تقرير هذه النزعة والخروج على المألوف دون أن يحل محلَّه غيره، فهو لا يأخذ بفكر الطبقات كما أخذ ابن سلام – وهذا واضح منذ الصفحات الأولى من كتابه – فهو إذا بدأ بامريء القيس فإنَّه قد ثلَّث بكعب ابن زهير ولم يقل أحد أنَّ كعباً من الطبقة الأولى ولا قدَّمه أحد على النابغة والأعشى اللذين يوردهما بعد ذلك بكثير. والذي يبدو لنا هو أنَّ ابن قتيبة لم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنَّه لم يؤمن بمقاييسه كمبدأ الكم مثلاً فهو يقول:" ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحداً من المكثرين على أحد – إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره، وهذا تفكير سليم ونظر صائب[57]

أمَّا المادة التي تضمَّنها كتاب الشِّعر والشُّعراء في جزئه الأول فقد جاءت على النحو الآتي:

1- أقسام الشِّعر أو أضربه.

2- الوجوه التي يختار الشِّعر عليها.

3- التكلف والصنعة والطبع في الشِّعر وعند الشُّعراء ووسائل استدعاء الشِّعر أو اسماحه أو تأبيه.

4- نظام القصيدة وما يلزم اتباعه منها، وتفسير لخطوط القصيدة، أو قصيدة المدح خاصة.

5- موقفه من القديم والحديث والحسن والقبيح.

6- بيان لعيوب القافية وما لا يجوز في لغة الشِّعر[58].

أمَّا الجزء الثاني من الكتاب فقد تضمَّن ترجمة للشُّعراء الذين اختارهم ابن قتيبة، وكان عددهم ستة ومئين من الشُّعراء الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين، ويبدو جليَّاً أنَّه لم يأخذ بفكرتي الزمان أو المكان، لأنَّه وكما يذكر الدكتور محمد مندور:" إنْ كان قد ابتدأ بالجاهليين لينتهي بالإسلاميين، فإنَّه لم يرتّبهم في كل عهد وفقًا لما كان معروفاً عند العرب – إن حقاً وإن باطلاً في ذلك الوقت – عن أسبقيَّة بعضهم لبعض ولو فعل لابتدأ بالمهلهل الذي يقول عنه ابن سلَّام " إنَّه أوَّل من قصد القصائد وذكر الوقائع"[59].

فيما يخص النقد، فإنَّ ابن قتيبة لم يهتم به كثيراً في هذا الجزء وانصبَّ اهتمامه على الترجمة للشُّعراء فكان نقده قليلاً متناثراً.

وقد رتَّب الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ منهج ابن قتيبة في هذا الجزء قائلاً:

1– ما أُستجيد أو أُستحسن أو رآه هو جيِّداً من شِعر الشَّاعر وابن قتيبة لا يذكر سوى الشِّعر فلا يبيِّن أسباب الجودة ولا مظاهر الحُسن، وهو أقرب إلى التأثُّريين منه إلى الموضوعيين.

2– ما أخذه النقَّاد العلماء على الشاعر من الخطأ، أو ما أخذه هو أيضاً وهنا يبيِّن أسباب المؤاخذة ويبدو موضوعيَّاً، يصدر حكمه وحيثيَّات حكمه، ولا يقف موقفاً سلبيَّاً دائماً من آراء العلماء في شعر الشاعر، بل أحيانا يناقضهم ويبين خطأ فكرتهم ويصحح شعر الشاعر، وأحيانا يوافقهم، ولذا فإنَّ جميع ما ورد من مآخذ في الكتاب على الشُّعراء معبِّر عن رأيه لأنَّه إمَّا مقتنع به يوافقه أو غير مقتنع فيخالفه.

3– ما سبق إليه الشَّاعر وأخذ عنه أو سبق إليه ولم ينازع فيه، وهنا لا يحد السابق أو الآخذ بزمن، ويتردَّد في الحكم بين الآخذ والسَّابق إذا تعاصر الشَّاعران.

4– ما يتمثَّل به من شِعر الشَّاعر، ولا يذكر مواقف تمثّل بها أحد بشعر إلا مرَّةً واحدة.

5– وهذا هو الجانب الذي يتصل بالترجمة، وفيه يستشف ابن قتيبة شيئاً من حياة الشاعر: ثقافته أو عقيدته أو قبيلته أو جنسه من الشعر وحده.

6– وقليلاً ما يفسِّر شيئاً من الشِّعر، وإذا هو فعل فإنَّما يفعل ذلك في مواطن خاصة: مثل أن يعارض رأياً سبقه لا يقتنع به، أو يشرح فكرةً غامضة جاء غموضها من إشارتها البعيدة أو ليدل على ثقافة الشاعر من خلال شرحه ونادراً ما يفسِّر لفظاً غريباً[60].

وينبغي على دارس كتاب ابن قتيبة ألَّا يكتفي بما يقوله في موضع واحد، إنَّما عليه أن يلاحظ هذه المسألة في صفحات أخرى من كتابه، " فلا يجوز له أن يكتفي بما قال في موطن واحد، أي لا يصح أن يعتمد على المقدِّمة أو الآراء التي ذكرها في الجزء الأول، دون نظر لما أورد من أحاديث خلال كلامه عن الشُّعراء، إنَّما يلزمه أن يبسط ناظريه خلال الكتاب كله، وألَّا يقف عند مآخذه وحدها، بل يلزمه أن يضع في حسبانه آراء العلماء

الذين نقل عنهم مؤيداً أو معارضاً، بل لا يصح لباحث أن ينظر إلى ابن قتيبة من خلال الشِّعر والشُّعراء وحده بل يلزمه أن يتسع فكره لكتبه الشِّعرية كلها."[61]

ويجدر بنا أن نذكر أنَّ ابن قتيبة من خلال كتابه الشِّعر والشُّعراء يعد: "أول كاتب عربي يضع كتاباً في تاريخ الأدب يخضعه للمنهج المدرسي في التأليف، فابن قتيبة يُعَد أوَّل من سنَّ هذا المنهج، إن لم يكن في كل الآداب العالميَّة فعلى الأقل في الأدب العربي، فإنَّ إخضاعه كتابه للمراحل التاريخيَّة المتسلسلة والفاصلة والكبرى واضح كل الوضوح. فهو قد قسَّم التاريخ الأدبي عند العرب ضمناً وليس تصريحاً إلى المرحلة الجاهليَّة والمرحلة الإسلاميَّة بما فيها مرحلة الشُّعراء المخضرمين والمرحلة العباسيَّة حيث كان يقف به الزمن. هذا التقسيم تقسيم مبتكر يعود الفضل إليه في ابتكاره واكتشافه.[62]

المبحث الثالث: من موضوعات فكر ابن قتيبة النَّقدي

1.3 . الشِّعر: أهدافه وغاياته

الشِّعر من أهم الفنون التي برع فيها العرب، فالفن الشِّعري وسيلته الكلمة المعبِّرة، أو الكلام الموزون المقفَّى مثلما يرى قدامة بن جعفر في تعريفه للشعر، هذا الفن الذي تناوله عدد كبير من نقَّاد الفن العربي فنظر كل منهم إلى جانب من جوانبه، يحاول أن يسبر غوره، أو أن يصل إلى حقيقته "منهم من يستمد أفكاره من واقع التجربة، تجربة الشِّعر مع الحياة، ومنهم من يربط بين هذه الوظيفة والفكر الفلسفي المجرَّد، وتكاد تتلاقى أفكار هؤلاء وهؤلاء – مع اختلاف الطريق – على تحديد الغاية من الشِّعر، المتعة أو الفائدة أو كليهما معا"[63].

يقول الآمدي في تعريفه للشِّعر: وليس الشِّعر عند العلم به إلا حسن التأتِّي وقرب المأخذ واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللَّفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما أُستعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإنَّ الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلَّا إذا كان بهذا الوصف، قالوا: وهذا أصل يحتاج إليه الشاعر والخطيب صاحب النثر، لأنَّ الشِّعر أجوده أبلغه، والبلاغة إنَّما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة، مستعملة سليمة من التكلُّف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصاناً يقف دون الغاية، وذلك كما قال البحتري:

والشِّعرُ لمح تكفي إِشَارَتهُ ... وليسَ بِالْهَذرِ طُولتْ خطبهُ

فإنْ اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة، أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه، واستغنى عمَّا سواه. وإذا انتقلنا إلى الأزهري نجده يقول: الشِّعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنَّه يشعر به غيره، أي يعلم[64]. فهو بتعريفه هذا يضيف إلى مفهوم

الشِّعر الشعور والإحساس. أمَّا ابن خلدون فيقول في تعريفه الشِّعر: الشِّعر الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف المفصَّل بأجزاء متَّفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عمَّا قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.(65)

ما سبق كان عرضاً لأهم ما ورد عن النقَّاد العرب القدامى في تعريف الشِّعر وصورته وبنائه، وابن قتيبة بوصفه ناقداً لم يغفل هذا الفن بل أشار إليه في عدد من كتبه، وبين أهدافه وأغراضه وأسبابه يقول: الشِّعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل يوم النفار، والحجَّة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم منهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة بيتاً منه شذت مساعيه، وإن كانت مشهورة ودرست على مرور الأيام وإن كانت جساماً، ومن قيَّدها بقوافي الشِّعر وأوثقها بأوزانه، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها على الدهر، وأخلصها من المجد، ورفع عنها كيد العدو، وغض عين الحسود.(66)

ثم يعود ابن قتيبة للحديث عن الشِّعر في كتابه تأويل مشكل القرآن فيقول: وللعرب الشِّعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنسابها مقيداً ولأخبارها ديوانًا لا يرث على الدهر ولا يبيد على مر الزمان.(67)

وإذا نظرنا في عيون الأخبار نجد أنَّه سجَّل أبياتاً لأبي تمام في وصف الشِّعر نتيجة إعجابه الشديد بها وهي التي تقول:

إنَّ القَوافِيَ وَالمساعِيَ لَم تَزَل ... مِثلَ النِظامِ إذا أَصابَ فَريدا

هِيَ جَوهَرٌ نَثرٌ فَإِن أَلَّفتَـــــــهُ ... بِالشِعرِ صارَ قَلائِداً وَعُقودا

مِن أَجلِ ذَلِكَ كانَتِ العَرَبُ الأُلى ... يَدعونَ هَذا سُؤدُداً مَحدودا

وقوله:

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه ... مغارمُ في الأقوام وهى مغانـمُ

إن العُلا ما لم تر الشعر بينها ... لكالأرضِ غفلاً ليس فيها معـالمُ

ولولا خلالٌ سنَّها الشعر ما درى ... بغــاة العُلا من أين تؤتى المكارمُ (68)

ويمكن أن نفهم من كلام ابن قتيبة السابق، أنَّ تلك هي الأهداف العامة للشِّعر، أما دواعيه وأسبابه ومثيراته التي تحفِّز المشاعر وتحرِّك الانفعالات والعواطف، فذكرها بقوله: وقيل لبعضهم: من أشعر الناس؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.(69)

وعلى هذا الرأي فإنَّ الفروسيَّة والخوف والرغبة والطرب من أسباب تدفُّق الشِّعر، ويواصل ابن قتيبة حديثه قائلاً: وقال عبد الملك بن مروان لأرطأة بن سهية: هل تقول الآن شِعراً؟ قال: ما أشرب، ولا أطرب، ولا أغضب، وإنَّما يكون الشِّعر بواحدة من هذه[70]. وهنا أضاف أسباباً أخرى لتدفُّق الشِّعر عند الشَّاعر وهي: شرب الخمر، والغضب، ويضيف ابن قتيبة: وقيل للشنفرى حين أُسر: أنشد فقال الإنشاد على حين المسرَّة، وقيل للخطيئة أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنَّه لسان حية فقال: هذا إذا طمع[71].

ويواصل ابن قتيبة حديثه عن الدواعي والمحفِّزات والأسباب التي تحرِّك قريحة الشَّاعر قائلاً: "وقيل لكُثيِّر عزَّة ما بقي من شِعرك؟ فقال: ماتت عزَّة فما أطرب، وذهب الشباب فما أعجب، ومات ابن ليلى — عمر بن عبد العزيز — فما أرغب، وإنَّما الشِّعر بهذه الخلال... وقيل لكُثيِّر عزَّة: كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشِّعر؟ قال أطوف بالرباع المخلية، والرياض المعشبة، فيسهل على أرصنه ويسرع إلى أحسنه.[72]

ويبدو ممَّا سبق واضحاً جليَّاً الأسباب التي تحرِّك المشَاعر والتي في ضوئها يبني الشَّاعر تجربته الشِّعريَّة، فابن قتيبة أشار من خلال العرض السابق إلى الأسباب والدواعي التي تحفِّز الشَّاعر، فقد ذكر الفروسيَّة وركوب الخيل، والرهبة والخوف، والطرب والتشبيب بالنساء، الغضب، والرغبة في تحقيق بعض الغايات، والبكاء والنحيب على الأحبة الذين هجروا ديارهم، والطبيعة ومناظرها، كل ما سبق تعد من أهم دافع التجربة الشِّعريَّة عند الشَّاعر العربي، فمن خلال هذه المواقف يتفاعل الشُّعراء فينقاد لهم من الشِّعر ما يجيش في الخواطر، ويفيض به الوجدان.

ومع أنَّ هناك بواعث كثيرة للشِّعر غير التي ذكرها ابن قتيبة لأنَّه لم يشأ أن يحصي ويستقصي وإنَّما كان هدفه ذكر الأمثلة مستدلاً بتجارب بعض الشُّعراء كالفرزدق وكثيِّر عزَّة والشنفرى وغيرهم، وذكر أيضاً أقوالاً للعلماء حتى يكون نوراً يسترشد به الشَّاعر في مسالكه، ويهتدي به في صناعته، فلا يستسلم للإجبال ولا يتلاوم مع النفس، ولا ينتظر حتى تأتيه ساعة الإجابة، بل يستدر أحلاب قلبه، ويستثير كوامن الحس في نفسه بالخلوة والرحلة وطرح الشواغل، وبالتأمُّل واستجلاء مشاهد الكون واستملاء مناظر الجمال، وحسبه من ذلك ماء جار، وروض معشب وخضرة ممدودة، ومواطن تثير الذكريات وتوقظ غافي الشعور، وكون فسيح في مرأى البصر لا تحد عجائبه ولا تنتهي مشاهده.[73]

وقد ذكر ابن قتيبة أيضاً الأوقات المناسبة لتدفُّق التجربة الشِّعريَّة عند الشاعر، كذلك نوَّه بالمعاناة التي قد يتعرَّض لها الشُّعراء عند استدعائهم الشِّعر يقول:" للشِّعر أوقات يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريضه، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذَّر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سبب، إلَّا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من غذاء أو خاطر غم، وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميم، وربما أتت عليَّ ساعة ونزع ضرس أسهل عليَّ من قول بيت. وللشِّعر أوقات يسرع فيها

أتيّه، ويسمح فيها أبيّه، منها: أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في المجلس، والمسير. ولهذه العلل تختلف أشعار الشَّاعر ورسائل الكتاب".[74]

وإذا ما تفحَّصنا آراء ابن قتيبة هذه، نلحظ أنَّه أدرك الدور الأساسي والمهم للعاطفة، فهي المحرِّك في موضوع الإلهام، فقد تطرَّق إلى عوامل مؤثِّرة في عاطفة الشَّاعر، منها الفراغ من المشاكل والخلوة وأول الليل والنهار وكذلك أوقات راحة الشَّاعر النفسيَّة التي يستجمع فيها خواطره وأفكاره، ويرتبها بعد ذلك لتخدم تجربته الشِّعريَّة.

ويعلِّق الدكتور إحسان عباس قائلاً: فبعض الحالات النفسيَّة والجسديَّة كالغم وسوء التغذية تمنع من قول الشِّعر، واختيار وقت من غير الأوقات المشار إليها لا يصلح كذلك، لكن الشاعر قد يضطر إلى التغاضي عن الحالة الصالحة والوقت الصالح فيكون ما ينظمه حينئذ مختلفاً متفاوتاً. وهنا يعود بنا التذكُّر إلى أنَّ الأصمعي عندما علَّل التفاوت في شِعر حسَّان نسب ذلك إلى الموضوع، وعندما عرض له ابن سلَّام نسب ذلك إلى اختلاف القائلين (أي الانتحال) أمَّا ابن قتيبة فإنَّه ذهب إلى التعليل النفسي في ذلك، ولعلَّه كان في هذا أدق فهماً للطبيعة الإنسانيَّة من صاحبيه، فالشَّاعر الذي يقول بحافز الرجاء والوفاء، يعتمد التفاوت في شعره على تفاوت قوة الحافزين لديه: وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنَّه كان يتشيَّع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشِعره في بنى أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علَّة ذلك إلَّا قوة أسباب الطمع، وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.[75]

وعلى هذا فالعواطف الإنسانية لها أثر قوي في بعث الشعر عند قائله ، وقد يكون أيضاً من هذه العواطف ما هو أقوى أثراً في نفس الشاعر من سواه أو من عاطفة أخرى ، فالإجادة في الشعر مرتبطة بقوة أثر العاطفة في النفس.

وقد يبدو أنَّ ابن قتيبة جعل لعاطفة الطَّمع أكبر الأثر بين العواطف الباعثة على الشِّعر، ويستدل على ذلك بأقواله في الحطيئة وفعال الكميت، وهذا ما دعا السيدة الدكتورة "بنت الشاطئ" فاعتبرته مثالاً من مثل انحراف النقد الأدبي عند العرب، وسيره في ركاب القصور، وترويجه للأغراض التي اهتم بها السَّاسة والخلفاء، تقول:" وثالثة الأثافي ممَّا أصاب الحياة الأدبيَّة من نكر أنَّ موازين السياسة وحدها هي التي كانت تحتكم في القيم الفنيَّة للأدب، وتسيطر على ذوق النقَّاد، فالفنون الشِّعريَّة التي أجازها السلطان كانت تحدِّد مجال الشِّعر وأغراضه، عند من حصروا الدنيا بين جدران القصر ... وفي مقاييسهم أنَّ مدائح الكُميت في بني أمية أجود من هاشمياته، مع تقريرهم أنَّه كان يتشيَّع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، ولا يرى ابن قتيبة علَّة لجودة مدائحه إلَّا قوة أسباب الطمع، وإيثار النفس لعاجل الدينا على آجل الآخرة "[76].

وردًّا على كلام د. بنت الشاطئ نورد تعقيباً للدكتور عبد السلام عبد الحفيظ يقول فيه: "والحق أنَّ ابن قتيبة لم يكن يهمُّه كثيراً أن يردِّد سياسات القصور، أو يروِّج لمقاييسها في الأدب، ولا كان مؤثراً لعاطفة الطَّمع في نفس على سواها"[77]. ويستمر الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ معقِّباً على كلام د. بنت الشاطئ قائلاً: (أمَّا الأول فلأنَّه – ابن قتيبة – أشرك مع هذه العواطف سواها: من شوق وشراب وطرب وغضب وما وراء ذلك، وأمَّا الثاني فلأنَّه كان يستدل على قوة آثار عاطفة بعينها عند الشاعر، وقد استدل بشاعر لم يعش في حياة القصور – وهو الحطيئة – وبآخر عاش هذه الحياة وهو الخريمي، وفي حديثه عن الكميت خاصة كان يفسِّر ظاهرة في شعره، وهي جودة مدائحه في الأمويين عنها في الطالبيين، مع شهرته بالتشيُّع والانحراف عن بني أمية، فلم يكن يقنِّن، وإنَّما كان يفسر، وقد جاء التفسير متضمِّناً ما يشعر بكرهه لصنيعه، واستيائه من سيطرة جشع الدنيا على قلبه، ومثل هذا لا يكون محبِّذاً لسياسة القصور، ولا مرغباً في الجشع، والطمع، ولا مؤثراً لعاجل الدنيا على آجل الآخرة."[78]

وإجمالاً لابدَّ لنا من أن نقرِّر أسبقية ابن قتيبة وريادته في كثير من الآراء النقديَّة الأصيلة التي انفرد بها، وخاصة حديثه عن العواطف والأحوال النفسيَّة للشَّاعر وتأثيرها في تدفُّق الشِّعر عند الشُّعراء.

2.3 . فوائد الشِّعر عند ابن قتيبة

وبعد العرض السابق يمكن لنا أن نستخلص بعضاً من فوائد الشِّعر عند ابن قتيبة:

1- الفائدة العلميَّة:

وتتمثَّل في حفظه لعلوم العرب في الإنسان والحيوان، والأنواء والرياح والبروق والسحاب وغيرها.

2- الفائدة التاريخيَّة:

وذلك باعتبار أنَّ الشِّعر سِجل لأحداث الحياة وتراث الماضي، فهو ديوان الأخبار ومستودع الأيام، وهو السور المضروب على المآثر، والخناق المحجوز على المفاخر، وحافظ للأنساب ومجدِّد للعلاقات والصلات[79].

3- الفائدة الأخلاقيَّة:

وتتمثَّل في أمرين **أولهما**: حفظ المآثر الكريمة، والمفاخر الحميدة، والخصال المستحبَّة لأصحابها خالدة على الدهر خاصة من الجحد، لأنَّ رواية الشِّعر تذكِّر الناس بهؤلاء الأماجد، وتخلِّد ذكرهم على مرور الزمن.

وثانيهما: يخص الناس والأجيال القادمة في الحث على الخلق، أو ترسم الصور المثاليَّة للمجد والعلا عن طريق حث البخيل على السماح، والجبان على اللقاء، والدنيء على السموّ.

4- تصوير حياة الشاعر:

كالجانب الأخلاقي أو الديني، فهو يحاول أن يستنبط بعضاً من أخبار الشَّاعر من خلال شِعره، فعلى سبيل المثال يقول عن زهير بن أبي سلمى: "كان يتأله ويتعفَّف في شِعره ويدل شِعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[80]

وفي مثال آخر نورده، نراه يصوِّر ما يعتري حياة الشَّاعر من حوادث، ما في جسمه من علل وما في عقله من فكر، فقد قال: عمى أبو يعقوب الخريمي بعد ما أسن وكان يقول في ذلك، فمنه قوله :

فإن تك عيني خبا نورها فكم قلبها نور عين خبا[81]

ومن هذه الأمثلة كثيرٌ في كتابه الشِّعر والشُّعراء.

5- دور الشَّاعر فيما يتعرَّض له الإنسان في مسار حياته:

فهناك أبيات ذكرها ابن قتيبة في مختاراته من الشِّعر تحت عنوان (ممَّا يتمثَّل به من شِعر الشَّاعر) وذكر تحته أشعاراً لامرئ القيس[82]، وزهير ابن أبي سُلمى[83]، والنابغة الذبياني[84] والمتلمس، وغيرهم.

6- التأثُّر الجمالي بالكلمة الجيدة، والصياغة الجميلة، والتصوير الأخاذ:

فقد كان أفضل الشِّعر عند ابن قتيبة هو الذي حسن لفظه وجاد معناه.

الخاتمة:

في عصر مزدهر من تاريخ الدولة الإسلاميَّة، برز فيه كثير من المفكِّرين والكتاب في شتَّى علوم المعرفة، استطاع ابن قتيبة بما امتلكه من ثقافة واسعة وفكر نيِّر أن يجد له مكاناً مميَّزاً وسط عصر صاخب بالمعارف، شاع فيه التأليف والتدوين، ولكن طُبعت مؤلَّفات تلك الفترة بطابع الاستطراد والانتقال العشوائي بين الأفكار وفقدت إلى حدٍّ بعيد وحدة الموضوعات، هذا الحال كان هو السائد حتى ظهر ابن قتيبة الذي اعتنى في مؤلفاته الكثيرة بالتنسيق والتنظيم بين الفصول والفقرات، واهتم بالتسلسل المنطقي في عرض أفكاره وموضوعاته، فاختطَّ لنفسه منهجاً متفرِّداً لا يخضع فيه للمعايير والمقاييس التي كانت سائدة في عصره، إضافةً إلى ذلك اتضحت موسوعيَّة ثقافة ابن قتيبة، فكتب في علوم شتَّى دون أن يفقد بصيرته الناقدة، وفكره المستقل غير الخاضع للمعتقدات الأدبيَّة السائدة، فكتب في اللُّغة وغريبها، وفي الحديث والتفسير والشِّعر وأخبار العرب ممَّا مرَّ ذكره في ثنايا هذه الدراسة.

وفي كتابه الشِّعر والشُّعراء ظهر جليَّاً فكره النَّقدي، فتعامل مع الشُّعراء بنظرة عادلة لم يسبق إليها، من حيث التقديم والتأخير والتفضيل، كما كانت أحكامه النقديَّة مستقاة من نظرة موضوعيَّة مستقلَّة، سواء وهو يناقش قضيَّة القديم والحديث أو قضية الطبع والصنعة أو قضية اللَّفظ والمعنى، فهو يرى أنَّ مقياس تقدُّم الشَّاعر وتميُّزه

إنَّما بالشِّعر وحده، دون اعتبار للزمن أو للعصر الذي عاش فيه الشاعر، فالاحتكام يكون للنَّص وحده، وهذه نظرة تقدميَّة تحسب له لا ريب. ولابن قتيبة أيضاً كلام جيِّد في تعريفه للشِّعر وفي تقسيمه لأهداف الشِّعر وبواعثه، خصوصاً تلك القيمة التي منحها للعاطفة ودورها المحرِّك في موضوع الإلهام، وهذا ما يجعله من أهم النقَّاد السابقين، إذ استفاد من آرائه كل من جاء بعده، وتغيَّرت ملامح التأليف من بعده مستفيدة من منهجه وطريقته في العرض والتفكير.

الهوامش والتعليقات :

([1]) الفهرست، ابن النديم، تحقيق: رضا تجدد بن زين العابدين، دار المسيرة، ط:3، (القاهرة، 1988) ص77.

([2]) الكامل في التاريخ ابن الأثير، دار الفك، (بيروت،1978) ج7:175.

([3]) تاريخ بغداد، البغدادي، دار الكتب العلمية، (بيروت،..) ج10:170

([4]) الأنساب للسمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط2 (بيروت،1980) ص 443.

([5]) إنباه الرواة، القفطي 143/2 . ط 1، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1986 ، ج 2/ 143 .

([6]) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية (بيروت، ..) ج 2/ 169 .

([7]) البداية والنهاية ابن كثير، مكتبة المعارف، (بيروت 1990) ط 2 ، ج11 / 48 ، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ، ابن خلكان، تحقيق : إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت، 1970) ج 3 / 43.

([8]) كتاب العرب في رسائل البلغاء ص 353، ينظر ابن قتيبة اللغوي، عبدالجليل مغتاظ ، ط 1، (بيروت ، 1988) ص 21

([9]) ينظر: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والنقدية، محمد رمضان الجربي، طرابلس، 1984، ص 30 .

([10]) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص 61.

([11]) ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية، رمضان الجربي، ص 30.

([12]) بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ص291 .

([13]) إنباه الرواة للقفطي، ج 2 / 143 .

([14]) ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الشباب، القاهرة، 1979 ، ج1/ 406.

([15]) تذكرة الحافظ – الحافظ الذهبي ج 2 / 187.

([16]) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، د.عبدالحميد يونس، ص 260.

([17]) دراسات في نقد الأدب العربي، د. بدوي طبانة ص 120 .

([18]) نيكلسون: تاريخ الأدب العربي، ينظر ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ، ص 40.

([19]) ابن تيمية تفسير سورة الإخلاص ص 86 .

([20]) البداية والنهاية : ابن كثير ج 11 / 48 و 57 .

([21]) الفهرست، ابن النديم (القاهرة)، ص 77

([22]) الأنساب للسمعاني ، ص 445.

([23]) ابن قتيبة د. أسحاق الحسيني ص 14 . وابن قتيبة ، عبدالحميد الجندي، ص 100.

([24]) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي، ج 10–170 .

([25]) تاريخ بغداد 171/10.

([26]) المنتظم 102/5 . عن ابن قتيبة اللغوي، عبدالجليل مغتاظ، ص 84.

([27]) أنظر: ابن قتيبة اللغوي ص 84 .

([28]) ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والنقدية، محمد الجربي، ص42.
([29]) النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، ص 23.
([30]) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، عبدالسلام عبدالحفيظ (القاهرة، 1987)، ص 116.
([31]) المصدر نفسه، ص 105 .
([32]) تاريخ النقد الأدبي، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، (عمان، 1993)، ص 105
([33]) عيون الأخبار، ج 3، ص 119، 216، 249.
([34]) تاريخ النقد الأدبي، إحسان عباس، ص 106.
([35]) المصدر نفسه، ص 106.
([36]) عيون الأخبار، ج1 ، ص 42 .
([37]) مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة، ينظر كتاب تاريخ النقد الأدبي لإحسان عباس، ص 107.
([38]) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، د. محمد زغلول سلام، ص 132.
([39]) الفهرست ص، 116.
([40]) وفيات الأعيان ج 3 /42 .
([41]) طبقات المسفرين، للداودي، تحقيق: على محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط1، (القاهرة، 1972) ج2 /426 .
([42]) انباه الرواة، ج 2 /145.
([43]) شذرات الذهب، ج2/169.
([44]) بغية الوعاة، ج 64/2 .
([45]) فهرسة ابن خير، ص 378، ينظر ابن قتيبة اللغوي، ص 76.
([46]) كشف الظنون، دار الفكر للطباعة والنشر، 1994، ص (125)
([47]) تاريخ أداب العرب، مصطفي صادق الرافعي، ج 342/3 .
([48]) الشعر والشعراء، ص 7.
([49]) المصدر نفسه، ص 8 .
([50]) الشعر والشعراء، ص 10 .
([51]) الشعر والشعراء، ص 11.
([52]) الشعر والشعراء، ص 10 .
([53]) الشعر والشعراء، ص11.
([54]) ينظر: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام، ص 134.
([55]) الشعر والشعراء ص12.
([56]) ينظر: النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، القاهرة، ص 22.
([57]) المصدر نفسه، ص 23.

([58]) ينظر كتاب الشعر بين ابن قتيبة ابن طباطبا ، د. عبدالسلام عبدالحفيظ، ص 115.
([59]) النقد المنهجي عند العرب ، ص 26 .
([60]) نقد الشعر، عبدالسلام عبدالحفيظ ، ص 116/115.
([61]) المصدر نفسه ، ص 116 .
([62]) ينظر: تاريخ النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص 152.
([63]) نقد الشعر، عبد السلام عبد الحفيظ ، ص 122
([64]) المصدر نفسه، ص 31 .
([65]) مقدمة ابن خلدون ص 454.
([66]) عيون الأخبار، ج2\ 185
([67]) تأويل مشكل القران ص14
([68]) عيون الأخبار، ج 2/ 183.
([69]) عيون الأخبار، ج2/ 185 .
([70]) الشعر والشعراء، ص 24 .
([71]) المصدر نفسه، ص 23 .
([72]) عيون الأخبار، ج 2 /185.
([73]) نقد الشعر، عبدالسلام عبدالحفيظ، ص 87.
([74]) الشعر والشعراء، ص 26 .
([75]) ينظر: تاريخ النقد عند العرب، إحسان عبّاس، ص 111 .
([76]) قيم جديدة للأدب العربي، د. بنت الشاطئ "عائشة عبد الرحمن"، (القاهرة 1970)
([77]) نقد الشعر، عبد السلام عبد الحفيظ، ص 186.
([78]) المرجع السابق نفسه، ص 187 .
([79])ينظر كتاب ابن قتيبة اللغوي، عبد الجليل مغتاظ، ص 59.
([80]) الشعر والشعراء، ج 1/ 139 .
([81])المرجع السابق نفسه ، ج 1/ 853 .
([82])المرجع السابق نفسه ، ج 1/ 118 .
([83])المرجع السابق نفسه ، ج 1/ 146 .
([84])المرجع السابق نفسه ، ج 1/ 68 .